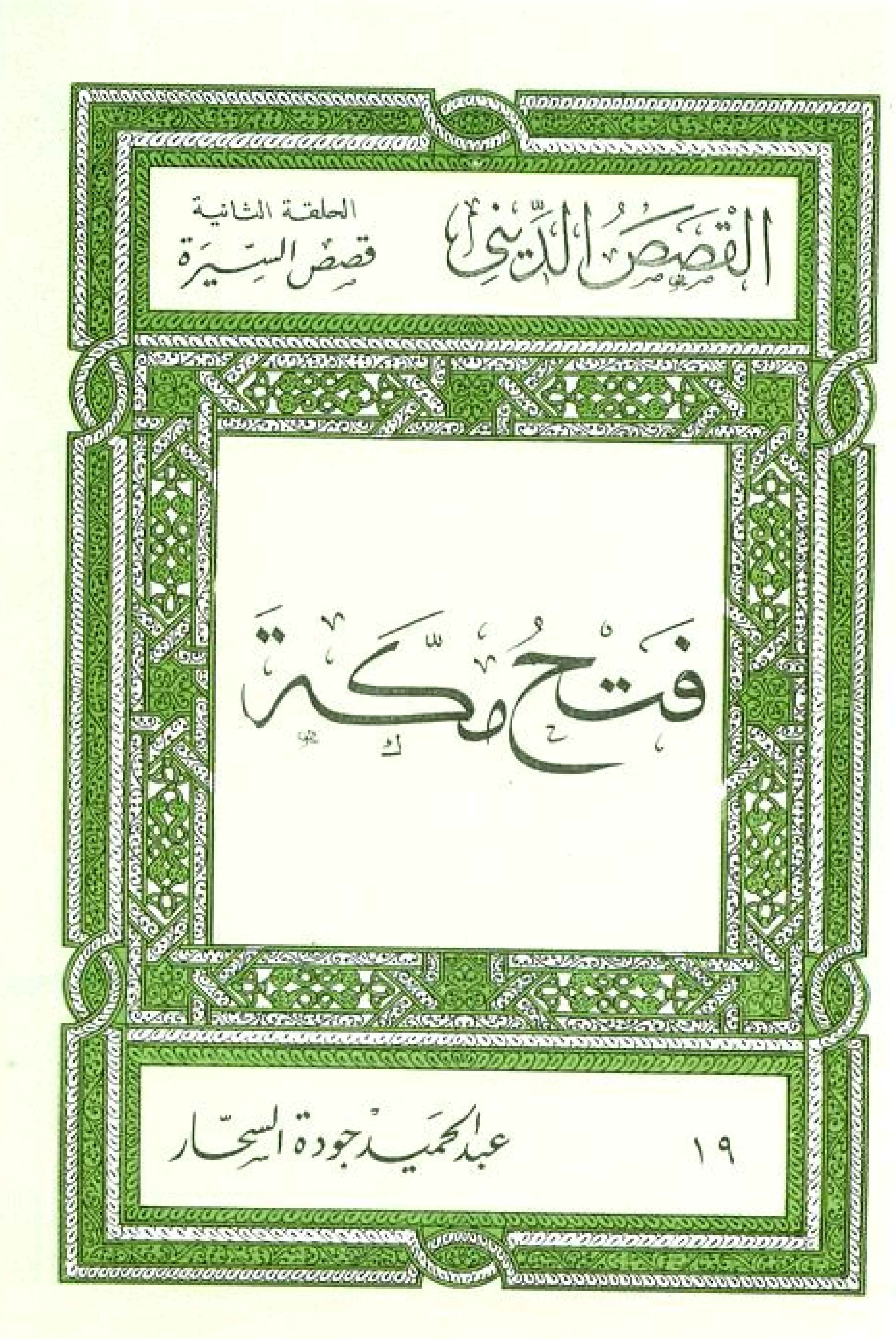


القصص الديني

الحلقة الثانية
قصص السيرة

فتح مكة

عبد الحميد جودة السحار

١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتحنا لكَ فَتحًا مُبينا ، لِيغْفِرَ لكَ اللّهُ ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تأخّر ، ويُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيك ، ويَهْدِيَكَ صِراطًا مُسْتَقِيما ﴾ .

(قرآن كريم)

١

عُقِدَ صُلْحُ الحُديبيَةِ بينَ رسولِ اللّه ﷺ وقريش ، وجاءَ فى ذلك الصُّلح : أنّه من أحبَّ أن يُحالِفَ محمدًا فَليُحالِفْه ، ومن أرادَ أن يُحالِفَ قُريشًا فليحالِفْها ؛ فحالفَت بنو بكرٍ قريشا ، وحالَفتْ خُزاعةُ رسولَ اللّه ﷺ .

وبينما كان رسولُ اللّه ﷺ جالِسًا فى المسجِدِ ، جاءَ عَمْرو بنُ سالِمٍ الخُزاعىّ ، وأخبَرَه أنّ قريشًا وبنى بكرٍ اعتدُوا على قبيلَتِه خُزاعة ، وهى القبيلةُ التى حالَفتْ رسولَ اللّه ، وطلبَ من رسولِ اللّه أن ينصُرَ حليفتَه ؛ ولما كان فى اعتداءِ قريشٍ وحليفتِها على خُزاعةَ حليفَةِ الرَّسول ، نقضٌ للمعاهَدة ، فإنّ

رسولَ اللّه ﷺ قال لعمْرو بن سالم :

ـ نُصِرْتَ يا عَمْرَو بنَ سالم .

وخافَ أبو سفيانَ أن تشكُوَ قبيلةُ خُزاعةَ إلى حليفِها النبيّ ، مما فعلتْه قُريش ، فخرجَ إلى المدينةِ ليُقابِلَ رسولَ اللّه ، ويؤكّدَ المعاهَدة ، ودخلَ على ابنَتِه أمّ حبيبة ، وكانت قد تزوّجتْ من رسولِ اللّه ، فلمّا أرادَ أبو سفيانَ أن يجلِسَ على فِراشِ رسولِ اللّه ، طَوَتْهُ أمُّ حبيبةَ عنه ، فَغَضِب وقال :

ـ يابُنَيّة ما أدرى : أرَغِبْتِ بى عن هَذا الفِراش ، أم رغِبتِ به عَنّى ؟

فقالت له ابنته :

ـ بَلَى ، هو فِراشُ رسولِ اللّه ﷺ ، وأنتَ رجلٌ مشركٌ نَجِس ، ولم أُحِبَّ أن تَجلسَ على فراشِ

رسولِ اللّه ﷺ .

فقال وهو غضبان :

ـ واللّه لقد أصابَكِ يابُنَيَّةُ بعدى شرّ .

وخرج أبو سفيانَ حتّى أتى رسولَ اللّه فكلّمهُ ، فلم يردَّ عليه شيئًا ، ثم ذهب إلى أبى بكر ، فكلّمهُ أن يكلّمَ له رسولَ اللّه ، فقال :

ـ ما أنا بفاعل .

وذهب إلى عُمَرَ بنِ الخطّاب ، فرفض أن يُكلّم له رسولَ اللّه ، فدخل على علىٍّ بن أبى طالب ، وعنده فاطمةُ بنتُ رسول اللّه ، فقال :

ـ يا علىّ ، إنك أمسُّ القومِ بى رَحِما ، وإنى قد جئتُ فى حاجة ، فلا أَرْجِعنَّ كما جئتُ خائبًا ، فاشفعْ لى إلى رسولِ اللّه .

ورفض عليٌّ أن يشفعَ له ، فعاد أبو سفيانَ سيِّدُ قريشٍ خائبًا ؛ لم يجد من يكلِّمُ له رسولَ اللّه ، لأن رسولَ اللّه كان قد وعدَ حلَفاءَه أن ينصرَهم على من نقضوا عهدَه .

٢

أمر رسولُ اللّه ﷺ المسلمينَ أن يتجهَّزوا للخروج ، ولم يَقُلْ لهم أين يريد ، فلما تمَّ كلُّ شيء ، أعلم الناسَ أنه ذاهبٌ إلى مكة ، وأمرهم أن يُسرعوا في سيرهم ، قبل أن تعلمَ قريشٌ بخروجه ، ويستعدُّوا لمقابلته ؛ كان يُحِبُّ أن يدخلَ مكّة ، دون أن يُريقَ دما ، وراح يدعو اللّه :

ــ اللهمَّ خُذِ العيونَ والأخبارَ عن قريشٍ ، حتّى

نَبْغَتَها (أى نفاجئَها) فى بلادِها .

ومضَى رسولُ اللّه لسفره ، حتّى إذا اقتربَ من مكّةَ عسكَرَ خارجَها ، وكان معه عشرةُ آلافٍ من المسلمين ، وقد قابلهُ فى الطريقِ عمُّه العبّاس ، جاء إليه من مكةَ يُعْلِنُ إسلامَه ، فعاد ليدخلَ معه مكّة .

وجاء اللّيل ، فأشعلَ المسلمونَ النّيران ، وراحوا يذكرونَ اللّه ويُسَبِّحونه ، كانوا فى النهارِ فرسانا ، وفى اللّيل رُهبانا .

٣

ركِبَ العباسُ بغلةَ الرّسول ، وخرج من معسكر المسلمين ، يبحثُ عن حَطّابٍ أو صاحبِ لبن أو ذى حاجة ، ليُرسلَه إلى مكة ، يذكُر لأهلها أنّ رسولَ

اللّه ﷺ قد جاء فى جيشٍ لا قُدرةَ لهم بـه ، ويخبرُهم أن يخرجوا إليه فيستأمنوه ، قبل أن يدخلَها عليهم عَنْوة .

وفى ذلك الوقت كان أبو سفيانَ وبعـضُ الرِّجـال قـد خرجـوا يتحسَّسـون الأخبـار ، وينظـرون هـل يجدون خَبَرا . فلمـا رأَوا النـيرانَ ذهبـوا ينظـرون ، فقال أبو سفيان :

ـ ما رأيتُ كاللَّيلةِ نيرانًا قَطُّ ولا عَسْكرا .

فقال رجلٌ معه :

ـ هذه واللّه خزاعة .

فقـال أبـو سـفيان : « خُزاعـةُ أذلُّ وأقـلُّ مـن أن تكونَ هذه نيرانها وعَسكرُها » .

وفى جوفِ اللَّيل ، سمع العبَّاسُ صوتَ أبى سـفيانَ فعرَفه ، فقال له :

ـ وَيْحَكَ يا أبا سفيان ! هذا رسولُ اللّـه ﷺ فى الناس . واصباحَ قُريشٍ واللّه .

قال أبو سفيان :

ـ فما الحيلة ؟ فِداكَ أبى وأمّى .

قال العبّاس :

ـ واللّه لئِن ظَفِرَ بك ليضربنّ عنقك ، فاركب فى عَجُزِ هذه البغلة ، حتـى آتى بـك رسـولَ اللّـه ﷺ فأستأمِنَه لك .

فَرَكِبَ أبو سُفيانَ خلْفَ العبّاس ، وذهبا إلى حيث كان رسولُ اللّه ، فكانـا كلّمـا مـرّا بنـارٍ مـن نِـيرانِ المسلمين ، سمعا صوتًا يُنادِى : من هذا ؟

وحينما يَرَونَ بغلَةَ رسـولِ اللّـه ، وعَليهـا العبّـاس يقولون :

– عمُّ رسولِ اللّـه ﷺ علـى بَغلَتِـه . ويُفسِحُونَ الطريق ، حتى إذا مرَّا بنارِ عمرَ بن الخطاب ، ورأى عمرُ أبا سفيان ، قام إليه يصيح :

– أبو سفيانَ عدوُّ اللّه ، الحمـدُ للّـه الـذى أمكـنَ منك ، بغَيرِ عَقْدٍ ولا عهد !

وراح عُمَـرُ يجرِى إلى حَيثُ كـان رسولُ اللّـه ، وراح العبَّاسُ يستحِثُّ البَغْلَة على الجَرْى . كان كلٌّ منهما يحاوِلُ أن يَصِلَ إلى رسـولِ اللّه قبـلَ الآخَـر ، ووصـلَ العبَّـاسُ إلى حيـثُ كـان الرَّسُول ، ودخـلَ عليـه ، ودخَلَ عمرُ خلفَه ، وقال عمر :

– يا رسُولَ اللّه ، هذا أبو سـفيانَ قـد أمكـنَ اللّـه منه بغيرِ عَقْدٍ ولا عهد ، فَدَعْنِى فلأَضرِبْ عُنقَه .

قال العبَّاس :

ـ يا رسولَ اللّه ، إنّى قَدْ أجَرتُه .

وصَرَفَ النبيُّ عمرَ والعبّاس وأبا سُفيان ، وقال لِعَمِّه :

ـ اذهَبْ به يا عبّاسُ إلى رَحْلِك ، فإذا أصبحتَ فأْتِنِى به .

٤

أصْبَحَ الصّباح ، فجاءَ العبّاسُ ومعه أبو سفيانَ إلى رسولِ اللّه ، فلمّا رأى رسولُ اللّه أبا سُفيان ، قال له :

ـ ويْحَك يا أبا سُفيان ، ألم يأنِ (يعنى : ألَمْ يَحِنْ) لك أن تعلَمَ أنّه لا إلَه إلاّ اللّه ؟

قال أبو سفيان :

- بـأبِي أنـتَ وأُمِّـى ، مـا أحْلَمَـكَ وأكرَمَـكَ وأوصَلَك ؟ والله لقدْ ظَننتُ أن لو كانَ معَ اللّـه إلَهٌ غيره ، لقد أغْنَى عَنِّى شيئًا بعد .

قال رسولُ اللّه ﷺ :

- ويْحَكَ يا أبا سُفيان ! ألم يأنِ لـك أن تَعْلَـمَ أنّـى رسولُ اللّه ؟

قال : « بأبِي أنتَ وأمِّـى ، مـا أحْلَمَـكَ وأكْرَمَـكَ وأوصَلَك ! أمَّا هذِه واللّه فإنَّ فى النَّفسِ منهـا حتـى الآن شيئا » .

فقال له العباس :

- ويْحَك ! أسْلِمْ واشهَدْ أن لا إلـهَ إلاّ اللّـه ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللّه ، قَبلَ أن تُضرَبَ عُنُقُك .

فقال أبو سفيان :

ـ أشهَدُ أن لا إلَه إلاّ اللّه ، وأنّ محمَّدًا رسولُ اللّه .

فقال العبّاس :

ـ إنَّ أبا سُفيان رجُلٌ يُحبُّ هـذا الفخـر ، فـاجْعَل له شيئا .

قال رسولُ اللّه ﷺ :

ـ نعم ، من دخَلَ دارَ أبى سُفيانَ فهو آمن ، ومـن أغْلَقَ بابَه فهو آمِن ، ومَن دخَلَ المسجِدَ فهو آمِن .

٥

وتأهَّبَ جَيْـشُ المسـلمينَ لدخُولِ مكـة ، وركِـبَ رسولُ اللّه ناقته ، وذهب أبو سفيانَ يصرُخ :

ـ من دخَلَ دارَ أبى سفيانَ فهو آمنِ ، ومَن أغْلَـقَ بابَه فهو آمِن ، ومن دخلَ المسجدَ فهو آمِن .

ودخَلَ المسلِمونَ مكة وقد اختبأ الناسُ فى دُورِهم ، فَسَجَدَ رسولُ اللّه ﷺ على ظهرِ ناقَتِه شكرًا للّه ، فقد دخَلَ مكةَ منتَصِرًا بعدَ أن خَرجَ منها خائِفًا يترقّب .

واطمأنَّ الناسُ إلى أنَّ رسولَ اللّه لن يَبطِشَ بهم ، فخرجُوا إليه ، وذهبَ رسولُ اللّه وصحبُه إلى البيتِ يطوفونَ به ، ووقفَ رسولُ اللّه على بابِ الكعبَة ، وقال :

– لا إلهَ إلاّ اللّهُ وحْدَه لا شَريكَ له ، صَدَقَ وعْدَه ، ونَصرَ عَبدَه ، وهَزَمَ الأحزابَ وحدَه .

يا مَعشرَ قريش ، إنَّ اللّه قدْ أذْهَبَ عنكم نَخْوَةَ الجاهِلَيَّة ، وتَعَظُّمَها بالآباء . الناسُ من آدَم ، وآدمُ من تُراب . « يأيُّها الناسُ إنَّا خَلَقناكُم من ذكَرٍ وأُنثى وجعلناكُم شعُوبًا وقبائِلَ لتعارَفُوا ، إنَّ

أَكْرَمَكُم عِندَ اللّه أتقاكُم » .

يا مَعشَرَ قُرَيش ، ما تَرَونَ أنّى فاعِلٌ بكم ؟

قالوا :

ـ خيرًا ، أخٌ كريم ، وابنُ أخٍ كريم .

وعفا رسولُ اللّه عنهم جميعا ، عفا عمَّن آذوْه واضطهَدُوه ، وأخرَجُوهُ من ديارِه ، فقال لهم :

ـ اذهَبُوا فأنتم الطُّلَقاء .

وَدَخَلَ الرَّسُولُ وأصحابُه إلى الكعبَة ، وجَعَلُوا يكسِرُون أصنامَها ويقولون :

ـ قل جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطِل ، إنَّ الباطِلَ كانَ زَهُوقا .

ولما تطَهَّرت الكعبَةُ عن الأصنام ، اعتلَى بلال الكعبة ، وراحَ يُؤَذِّنُ لأوَّلِ مرَّة فى مكة :

اللّه أكبر ! اللّه أكبر ! اللّه أكبَر ! اللّه أكبَر !

أشهدُ أن لا إله إلاّ اللّه . أشهدُ أن لا إلَهَ إلاّ اللّه .

أشـهَدُ أنَّ محمَّدًا رسـولُ اللّـه .. أشـهَدُ أن محمَّـدًا رسولُ اللّه .

حيَّ على الصَّلاة ، حيَّ على الصَّلاة .

حيَّ على الفَلاح ، حيَّ على الفَلاح .

اللّه أكبَر ! اللّه أكبَر !

لا إلَهَ إلاَّ اللّه .

ومُنذُ ذلك الوقت ، أصبحَ صوتُ المـؤذِّنِ يجلجِـلُ في الكعبةِ في كـلِّ يـومٍ خمسَ مـرّات ، فقـد هَجَـرَ العـربُ عبـادَةَ الأصنام ، وأصبَحُـوا يعبُـدونَ اللّـه وحدَه .